بريد الجمعة

أثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ■ ٥ يوليو ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

الصندوق الخشبى

أكتب إليك لأشركك وأشرك قرائك فى قصتى بعد أن شاركت أبطال قصص هذا الباب همومهم وأفراحهم لسنوات طويلة.. فأنا سيدة أقترب من الأربعين من العمر، أرى نفسى نضرة الشكل أو بمعنى أصح مريحة للعين ويرى زوجى بعين الحب الذى أجمل النساء. وقد بدأت حياتى بين أبوين طيبين وأخت وأخ يصغرانى.. وأنهيت تعليمى حتى المرحلة الثانوية فى سلام. وفى المرحلة الجامعية تعرفت وأنا فى السنة الثالثة بزميل لى يكبرنى بست سنوات وأمضى فى الكلية سبع سنوات دون أن يتخرج، وعلى الرغم من تحذيرات زميلاتى لى منه ومن استهتاره البادى للعيان.. فلقد وقعت فى غرامه. وكرست حياتى لحثه على الاهتمام بدراسته والحصول على شهادته بعد أن سبقه زملاؤه إلى العمل، وبالفعل فلقد أبدى بعض الاهتمام بالدراسة.. ثم طلبت منه أن يتقدم لأبى فجاء إليه. وكان رأى أبى من اللحظة الأولى أنه لا يصلح لى وأن حياتى معه لن تعرف الاستقرار ذات يوم لعدم جديته وطيشه وطفوليته، لكن استمسكت به وأفهمت أبى أننى لن أتخلى عنه وأننى قادرة على أن أصنع منه إنسانا جادا ومثقفا.. ووافق أبى على مضض.. وقبلت به أمى على غير اقتناع.. وخطبت له وأنا فى السنة النهائية من الكلية.. وبعد الخطبة بأسابيع بدأت معاناتى التى حذرنى منها أبى معه.. فلقد عاد للانصراف عن الدراسة.. ورجع فى كل ما اتفقنا عليه وكان المنطق يقضى بأن أحل نفسى من الارتباط به مادام لا يحفظ عهدا ولا يلتزم بما وعد، لكنى كرهت أن أستسلم للفشل واليأس وتحملت مراوغاته وإهماله لى إلى أن تخرجت وهو مازال متعثرا فى الدراسة، ورفضت تسمية أمى وأبى بقصة الخطبة وانتظرته عاما كاملا حتى تخرجى إلى أن حصل على شهادته بما يشبه المعجزة وسعى والده فى تعيينه بوظيفة بإحدى الهيئات، وقال لأبى إنه قد أدى ما عليه بالنسبة لابنه ولن يفعل له بعد ذلك شيئا آخر، وبدأ المستقبل أمامى غامضا.. لكنى لم أتراجع ولم أستسلم، وعملت بوظيفة بالضرائب وحصلت على شقة بالإيجار دفع أبى مقدم إيجارها الباهظ، وأصر على كتابة عقد الإيجار باسمى وأصبح كل المطلوب من خطيبى هو أن يدفع المهر البسيط الذى قبلنا به وأن نعقد القران ونتزوج.. فحثثت خطيبى على أن يدبر نصف مرتبه لكى يستطيع تقديم المهر ووعدته بأن أعطيه ما سرا.. كل ما ادخرته من مصروفى ليكمل به المبلغ المطلوب، لكنه ترفعنى كالمعادة.. وراح يتمثل بشتى الصحج والأعذار.. وكلما تجمع لديه مبلغ من المال، أنفقه على حياته وسهراته ونزهاته، وشكا من عدم تعاون أبيه معه، وطالت فترة الخطبة أربع سنوات دون أن يلوح أى أمل فى تغير الأحوال.. واضطررت أخيرا إلى مصارحة أبى بعجز خطيبى عن سداد المهر واستعدادى للتنازل عن بعض احتياجاتى من الأثاث للتعجيل بالزواج بعد أن طال الانتظار، وسلم أبى برغبتى كأمها بعد أن ضاعت نحو ست سنوات من عمرى.. وأسهمت مع أبى بمدخراتى فى إعداد الأثاث وتم الزواج دون أن يتكلف زوجى إلا أقل القليل.. وانقضت الأسابيع الأولى سريعة وجميلة.. وحملت بجنين الحب بعد شهور وأنجبت طفلا جميلا.. فما أن بلغ الطفل شهوره الثالث حتى انصرف زوجى على وعن طفلى نهائيا ورجع إلى استهتاره السابق وإلى إنفاق كل مرتبه على جلساته وسهراته وسجائره، وكف تماما عن الإسهام بأى شىء فى نفقات الأسرة.. كما بدأ يتطاول على كلما عاتبته أو ذكرته بمسئوليته عنى وعن طفله.. وكثرت خلافاتنا وشكوته إلى أبيه وإلى أمه، وواجهت مواقف عصيبة كثيرة بسبب مرض الطفل واحتياجه إلى نفقات للغذاء والمتابعة الطبية والملابس..إلخ. وبعد عام من الإنجاب وجدت نفسى مسئولة مسئولية كاملة عن حياتى وحياة طفلى بل ومسئولة أيضا عن تقديم هبات مالية صغيرة لزوجى ليكمل بها وجباته واحتياجاته وسجائره الأجنبية، فإذا فرغت يداى طلب منى اللجوء لأبى لأخذ النقود منه.. كما أصل عمله وأصبح يتغيب أو يتأخر عن الذهاب إليه فى موعده كثيرا فيتعرض للخصم من مرتبه، وجاء يوم مرض فيه الطفل مرضا شديدا واحتجت إلى نقود لعرضه على الطبيب وطلبت من زوجى أن يدبر لى أى مبلغ لعلاج الطفل فانفجر فى شتامنا ولاعنا ولم أتمالك نفسى من الرد عليه.. وصارحته برأيى فيه فإذا به ينهال على بالضرب المبرح ويضربنى بالحزام إلى أن أغمى علىّ.. وأفقت من الإغماء بعد قليل فلم أجده فى البيت ووجدت الطفل يبكى بحرقة، فانفجرت فى البكاء ثم حملت الطفل وذهبت إلى بيت أبى وآثار الجراح فى وجهى ورقبتى وذراعى.. فما أن رأيت أبى حتى انفجرت فى البكاء وغير بيده وطلبت منه أن يسامحنى على أننى لم أخذ بنصيحته ولم أعمل برأيه فى زواجى، وهرولت أمى بالطفل إلى الطبيب، وحزم أبى أمره واصطحب أخى إلى مسكن الزوجية وجمعا أشياء زوجى فى حقيبتين وغيرا كالون الشقة وأرسلا ملايسه إليه فى بيت أبيه وأبلغاه بالحضور لإتمام الطلاق مع التنازل له عن كل الحقوق.

وقاوم زوجى الطلاق لفترة طويلة وحاول بشتى الحيل استعطافى، واستئناف حياتنا مرة أخرى.. واعتذر كثيرا وقدم وعودا أكثر، لكن قلبى كان قد أغلق أبوابه فى وجهه نهائيا فاستمسكت بالطلاق حتى وافق عليه بعد معاناة طويلة، وأقمت مع طفلى فى بيت أبى وبدأت أضمد جراحى النفسية والعاطفية وأستعيد صحتى وإقبالى على الحياة، وعقدت العزم على ألا أتزوج مرة أخرى وأن أكرس حياتى لطفلى الصغير.

وتقدم لى أحد أقاربنا فاعتذرت له بأننى لا أشعر فى نفسى بأى استعداد للزواج من جديد.. وحاول زميل لى أرمل أن يقترب منى فأفهمته بأدب بأننى قد جربت حظى فى الزواج وليست لدى رغبة فى تكرار التجربة

وكان شقيقى وشقيقتى قد تزوجا واستقلا بحياتهما فأصبحت الابنة الوحيدة المقيمة مع أبى وأمى..

ومضى عامان لم يكف خلالهما زوجى السابق عن محاولاته لإرجاعى إلى أن سلم بالبأس منى وتزوج واستراحت.. وذات يوم كلفت فى عملى بمناقشة معمل صغير تلفت الأمومة شده شكوى مجهولة بأنه يخفى جزءا أساسيا من نشاطه وإيراده، وجاءنى فى الموعد المحدد وأجريت المناقشة معه.. وعرفت من سياقها أن الشكوى مقدمة من مطلقته بنية الكيد له وكجزء من الحرب الشعواء التى تشنها ضده.. وبدا لى الرجل صادقا ومحترما وجادا.. وقال لى فى سياق الكلام إنه يلتمس العذر لمطلقته فيما تفعل لأنها تريد استعادته بأى وسيلة ولو تطلب الأمر إشهار إفلاسه وليس حبا فيه وإنما لأنه الإنسان الوحيد الذى كان يتحملها ويصبر عليها ويفوض أمره إلى الله فيها.. إلى أن فاض به الكيل وجرجرته ذات ليلة إلى قسم الشرطة بدعوى اعتدائه عليها وعلى أهلها.. فلم يحتمل أكثر من ذلك وطلقها وهو حزين على مستقبل طفله منها.. ولسبب لا أدريه حتى الآن وجدت حواسى تنتبه بشدة لما يقول وسألته، وهل صحيح أنك قد ضربتها؟.. فأخرج من جيبه الداخلى مصحفا صغيرا وضع يده عليه وأقسم بالله العظيم أنه لم يمسسها بأذى منذ عرفها وإلى أن طلقها ولم يمد يدا عليها بل إنها هى التى كانت تتهور عليه فى شدة عصبيتها وجنونها وتمد يدها عليه فيحمى نفسه منها ويدفعها عنه!.. ووجدت نفسى أفكر فى هذا الرجل وأتأمله خفية، ثم طلبت منه بعض الأوراق والمستندات وترقبت الموعد التالى لاستكمال المناقشة باهتمام غريب.. وجاء الرجل فى موعده.. وقدم لى بعض الأوراق وطلب مهلة يومين أخرين لإحضار بقية المطلوب.. ووجدتنى أسحر بذرياح لاحتمال تكرار اللقاء، مرة ثالثة وطلبت له فنجانا من القهوة.. وفحصت أوراقه وأثبتها فى ملفه، وتحدثنا لبعض الوقت.. وفى الموعد الثالث قدم لى بقية الأوراق ووجدته صادقا فى كل ما قال.. وصارحته برأيى هذا.. فبدا عليه الارتياح والابتهاج ووجدتنى بغير أن أدرى أسأله عن مصير طفله فقال لى إن الطفل يعيش مع مطلقته، لكنها تهمله لانشغالها بالكيد له.. ورفع القضايا ومقابلة المحامين إلخ.. واستطردا للحديث سألنى عن حالتى الاجتماعية فأجبته فى اقتضاب بأننى مطلقة وعندى ولد يعيش معى.. فبدا عليه الاهتمام الشديد.. وسألنى فى حياء: هل تمانعين فى معرفة بعض التفاصيل الشخصية عنك؟.. وأجبته بلا تكلف أننى لا أمانع فى ذلك وسألنى عن ظروفى وأبى وعنوان أسرتى..إلخ.

وانصرف شاكرا وبعد أسبوعين لم أكف عن التفكير فى هذا الرجل خلالهما.. رجع إلى مكتبى بحجة تقديم ورقة أخرى رآها مهمة لضمها إلى ملف.. فلم تفت على الإشارة ودعوته للجلوس وطلبت له فنجان القهوة، وسألته عن آخر أخبار الحرب الشعواء فألقى على مفاجأة مثيرة هى أن مطلقته قد تزوجت المحامى الذى توكله فى قضاياها ضدى، وأنها أعادت إليه الطفل عملا بنصيحة المحامى وأنه قد سعد بعودة طفله إليه، لكنه يتوقع مزيدا من المشاكل القانونية والقضايا بعد أن تزوجت مطلقته من المحامى الذى «سيبدع» فى الكيد له لإثبات جدارته لزوجته الجديدة!

وضحكنا على هذا الأمر وتبادلنا التعليق عليه طويلا وكلما استشعر الحرج من أنه أطال الزيارة وهم بالاستئذان طالبته بالبقاء، بلا حرج إلى أن تجرأ فى نهاية الجلسة وسألنى بصوت خافت: هل أنت مستعدة للعطف على طفل صغير ليس من صلبك؟.. فاحمر وجهى غير أننى لم أتردد فى أن أجيب عليه بسؤال مماثل: وهل أنت كذلك مستعد للعطف على طفل صغير لم تنجبه؟!

فابتهج ابتهاجا شديدا وقال لى إنه سيزورنى فى منزلى مساء الغد.

وجاء فى الموعد وطلب يدى ووجد أبى نفسه أمام إنسان جاد وصريح وملتزم وكريم.. فمد لى الخاتم والشبكة والمهر وأقام لى حفلا بسيطا لكنه جميل، وأعد بعده بيت الزوجية فى مسكنه وتزوجنا خلال أشهر قلائل وبعد إجازة عسل لمدة أسبوع واحد قال لى إنه قد حان الوقت لأن يتحمل كل منا مسئوليته تجاه «أطفالنا» فاستردت طفلى من أمى واسترد هو طفله من جدته.. وأصر على أن تكون لهما غرفة واحدة بسرير رغم وجود غرفة زائدة، لكى ينشأ كأخوين من الصغر وبدأت حياتى الزوجية معه فعرفت أن فى الدنيا حياة أخرى تعتمد فيها الزوجة على رجل يحبها، ويحترمها ويحفظها ويحميها ويرعاها ويتحمل كامل المسئولية عنها وعن أسرته، ويتابع شئون الأطفال، ويعطى كلا منهم مصروفه، ويصطحبه لشراء احتياجاته وإلى عيادة الطبيب، وإلى الملاهى يوم الجمعة.. أو النادى.. أو ملعب الكرة، ويأخذ بيده إلى المدرسة فى اليوم الأول من الدراسة ليتعرف بالمدرسين ويوصيهم به، ويتناول العشاء مع زوجته وطفليه، ويشاهد معهم التليفزيون إلى أن ينام الأطفال فيخيم الليل إلى جوار زوجته، ويفاجئها من حين لآخر بهدية صغيرة.. أو حلية ذهبية بسيطة.. وليست له حياة خارج نطاق أسرته سوى عمله وصلته بأهله وأهل زوجته وعلى الرغم من أن كلا منا ليس محروما من الانجاب فلقد أصر زوجى على أن ننجب طفلا أو طفلة لكى ندعم روابطنا ويربط بين ابنينا برباط من الدم كما قال.. فأنجبت طفلة جميلة طار بها فرحا وسرورا، ومضت الأيام معه وأطفالى الثلاثة يتألقون صحة وجمالا وينثرون البهجة فى حياتنا فأعجب للسنوات العجاف التى ضاعت من عمرى فى التجربة الطائشة الأولى فى حياتى.. وأعجب كيف تصورت أننى قد أحببت بطلها وحاربت أهلى من أجله.. والحب كما عرفته مع زوجى الحقيقى شىء آخر مختلف تماما ولم تخل حياتنا على الرغم من ذلك من منغصات الحرب الشعواء من جانب مطلقة زوجى، ولا من مشاكل مطلقى ومحاولته لاسترداد ابنى لمجرد الكيد لى.. وليس حبا فيه فلقد تكررت حياتى ذات يوم برغبته فى انتزاعه منى وسألت زوجى عما أفعل فقابل مطلقى وحاول التفاهم معه بالحسنى.. ولم يصل معه إلى نتيجة فنصحنى بتجنب النزاع والمشاكل معه وتسليمه الطفل واثقا بأن زوجته الجديدة لن تتحمله أكثر من أسابيع ثم يعيده هو إلينا.. واستجبت للنصيحة بأكبر فستق حدسه ولم تتحمله زوجته بالفعل أكثر من شهر واحد ثم أعاده إلى مطلقى مشترطا أن تكتب له ورقة بالتنازل عن نفقته.. ولم أكن قد حصلت منه من قبل على أية نفقة له فرحب زوجى على الفور بذلك ووقع إلى جوار توقيعى بأننا لن نطلب منه شيئا ذات يوم.

ثم واجه زوجى بعد عامين من الزواج بعض المشاكل المالية الحادة فى عمله.. وعشنا فترة جفاف شديد حتى اضطر لبيع سيارته وإنقاص مصروف البيت وهو فى شدة الخجل والارتباك وشعرت بالإشفاق عليه مما يكابده فى صمت.. ثم علمت أنه يواجه موقفا عصيبا يهدده بالإفلاس نتيجة لحلول موعد سداد أحد الشيكات دون أن يكون له ما يغطيه من رصيد.. وعرفت أنه قد عجز عن الاقتراض من أهله وأصدقائه ضمنت الصندوق الخشبى الصغير الذى كنت أحتفظ فيه بمصاغى سرا ودون أن أستأذنه وذهبت إلى الصاغة وبعت كل مجوهراتى وحملت إليه الثمن فرفض زوجى أخذه بشدة وبكى متأثرا.. وبكيت معه واتهمته بأنه لا يحبنى ولا يرانى أهلا لمساعدته فى محنته وأقسمت عليه بأبنائنا الثلاثة أننى لن أعيش معه يوما واحدا إذا رفض مساعدتى.. فأخذ النقود بعد إلحاح دام ثلاثة أيام وبعد أن أقسمت له أننى أثق بقدرته على اجتياز المحنة ولا أشك لحظة فى ذلك مهما طال الانتظار وسدد قيمة الشيك.. ولاحظت بعدها أنه يعاملنى بانكسار غريب وتألمت لذلك.. وأردت أن أرفع روحه المعنوية فتلاحاه بتقبيل قدميه أمام أطفالنا.. ليعرف أنه فارسى ورجلى وسيدى ووالد أطفالى وأن أزمته لا تقلل من شأنه فى نظرى.. وهو يقاوم ويبكى والأطفال حولنا يبكون.. وعشنا هذه المحنة ثلاث سنوات عجاف اعتمدت خلالها على إنفاق مرتبى على الأسرة إلى جانب ما يعطيه لى زوجى من مصروف ثم رجعت من عملى ذات يوم فوجدته فى البيت على غير العادة ووجدت الأطفال معه.. وتوجست من أن يكون مريضا. لكن ابتسامته العريضة طمأننى وفوجئت به يطلب منى أن أجلس لأن لديه ما يريد أن يحدثنى عنه أمام الأطفال. ثم اختفى فى غرفة النوم قليلا ورجع حاملا الصندوق الخشبى الصغير الخالى من المجوهرات وطلب منى أن أفتحه فأفعلت فإذا به ممتلئا عن آخره بالمصوغات الذهبية.. وبما يزيد على ضعف ما كان فيه من قبل، وقال للأطفال إن أسهم فى الصندوق قد زادت إلى جواره فى أزمته حتى أجتازها بسلام.. واسترد كل ما فقده من قبل.. وأفاض الله عليه برزق أطفاله الثلاثة ففتح لكل منهم دفتر توفير فى البريد ووضع فيه مبلغا محترما.. وأنه يريد منهم أن يشكروا أمهم العظيمة على أخره بالمصوغات الذهبية.. وبما يزيد على ضعف ما كان فيه من قبل، وقال للأطفال إن أسهم